مجلة العلوم الإنسانية ـــــــ عدد 47 جوان 2017، ص. ص 155- 166

غادامير والترجمة: الترجمة بوصفها تأويلا

بوجمعة بلقليل
قسم الأدب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعةالإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:

يناقش هذا البحث رأي الفيلسوف "هانز جيورج غادامير **Hans Georg Gadamer**" حول موضوع الترجمة، وهو رأي لا يخرج عن إطار نظريته التأويلية (الهيرمينوطيقية)؛ حيث يُضم فعل الترجمة إلى سلسلة الفنون الأدائية، التي هي في الأصل عمليات هيرمينوطيقية مضاعفة. تتضمن الترجمة تأويلا أولا يقوم به المترجم في أثناء القراءة للنص الأصلي، وتأويلا ثانيا في أثناء "إبراز" هذا التأويل في لغة أخرى. لذلك كان التأويل شيئا بنيويا في الترجمة، وليس مجرد عملية طارئة كما كان يُعتقد. وواضح أن هذه النظرة بعيدة عن نظرة علم اللغة الذي ينظر إلى الترجمة بوصفها توازيا لفظيا ومعنويا، وفي مقابل ذلك يمكن أن نستشف تقاربا غير معلن لمفهوم الترجمة بين التناول الغاداميري، وبين تناول "الدراسات الترجمية" (وهي فرع حديث من فروع الأدب المقارن) لها، لذلك كان من المفيد – عند مناقشة آراء غادامير - أن نتطرق إلى تلك المجالات المهتمة هي الأخرى بالترجمة، وهذا من أجل وضع آراء غادامير بإزّاء النظريات الأخرى، ومن ثمة استكناه أصالته.

Abstract:

This research represents the opinion of the philosopher Hans George Gadamer about The object of Translation. This opinion is not outside his Hermeneutic theory; where he joins the Translation process to the chain of the performance arts, which are in fact doubling Hermeneutic activities. The translation involves a first interpretation that the translator makes during the reading of the original text, and a second translation during "revealing" this interpretation in another language. So the Interpretation was a structural thing in the translation not only a permanent process as it was thought to be. And it is clear that this view is far from the view of linguistics which sees translation as a parallelism in utterance as well as in meaning. In opposite to this, we can reveal a hidden approximation to the concept of translation in between Gadamer's approach and the approach of "translation studies" (which is one of the recent branches of the comparative literature) to it. Hence, it was useful –when discussing Gadamer's views -to treat those domains that are also interested in translation, and this in order to put Gadamer's views in front of the other theories, and then to discover his authenticity.

مقدّمة:

تعد الترجمة وسيلة أساسية للتواصل بين الثقافات في لغات مختلفة، وهذا المفهوم التوسيطي هو على وجه التحديد الجانب الذي من خلاله يتناول الأدب المقارن هذه الآلية الأساسية، صحيح أن فعل " التوسيط" يكون حاضرا دائما في المناقشة باعتباره مفهوما بنيويا للترجمة، ولكننا هنا لسنا بصدد تناول الترجمة على شاكلة ما يقرره الأدب المقارن، بوصفها "جسرا" بين الثقافات مهمتها نقل المعارف، بل على شاكلة ما بنى عليه الأدب المقارن تناوله؛ أي أن الأمر يتعلق أساسا بالأصول، بوصفها(الترجمة) "علاقة" بين اثنين تكفل اتفاقا ما.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1،الجزائر2016

ونحن هنا - من جهة أخرى- لا نتناولها على شاكلة ما يقرره علم اللغة باعتبارها نقلا لمجموعة من الإشارات والتراكيب النحوية والصوتية والصرفية...من لغة إلى أخرى. إننا بالأحرى لا نتناول الترجمة كعملية لاحقة للفهم، ولكن كإجراء من إجراءات الفهم والتأويل اللذين يشكلان بنيتها الأساسية. إن المشكلات التي يثيرها علم اللغة الحديث غالبا ما تتمحور حول صدق الترجمة من عدمه، أو بصفة أوضح عن مدى مطابقة النص المترجم للنص الأصلي، غير أن "هانز جيورج غادامير Hans Georg Gadamer(1900-2002)" يناقش قضية الترجمة - في إطار نظريته التأويلية " Hermeneutic theory"- مرتبطة ارتباطا أساسيا بمبدأ "الفهم understanding"، وهو لا يتّخذ الفهم بوصفه "أزمة" تهدد صدق المعنى المترجم، ومنه يجب على المترجم - من أجل نتائج أفضل- أن يسير وفق قواعد صارمة، بل بوصفه "قَدَرا" عليها أن تدرك مدى تفاهة إنكاره.

لقد نظر "غادامير" إلى النص الأصلي في لغته الأجنبية باعتباره "آخَرَ" بعيدا نحاول أن نفهمه ومن ثمة نؤوّله، ولكن، أليست معاملتنا حتى للنص الذي هو مكتوب بلغتنا ومنغرس في تراثنا المعيش مستندة هي الأخرى إلى آخرية هذا النص، وبالتالي إلى ضرورة تأويله وفق المبدأ الهيرمينوطيقي العام؟ ما معنى أن يكون النص أجنبيا إذًا، ويحمل في جوفه تراثه الخاص؟ وما معنى أن نترجم هذا الآخر إلى لغتنا رغم آخريته المفرطة التي تختلف بكل تأكيد عن آخرية نص قريب منا نقرأه بلغتنا؟ يمكننا أن نلاحظ هنا أن الأمر كله متعلق بقضية اللغة وتعددها، لهذا ليس غريبا أن نعثر على توصيف غادامير للترجمة، وبيان بنيتها، متضمّنَةً في مناقشته لقضية اللغة.

يكمن الاختلاف الأساسي في تناول قضية الترجمة بالنسبة للمجالات الثلاثة – الأدب المقارن (في مرحلته التاريخية الوضعية)، علم اللغة (المقارن، وحتى الوصفي)، الهيرمينوطيقا- في أن الأدب المقارن يتناولها غالبا بوصفها "أداةً"، ويتناولها علم اللغة المقارن بوصفها "توازيا قواعديا"- كما سيظهر لاحقا-، أما الهيرمينوطيقا فتتناولها بوصفها "حالة قصوى من الفهم"، لذلك يكون التأويل شيئا أساسيا، بقدر ما هو شيء عضويٌ في الترجمة. وعلينا هنا أن نكون على بصيرة بما يمكن أن يسبب التباسا بين هذا المفهوم الغاداميري للتأويل الترجمي، وبين ما يسمى بـ "النظرية التأويلية في الترجمة The theory of interpretative in translation"التي شقت طريقها بقيادة "دانيكا سيلسيكوفتشDanica Seleskovitch " منذ سبعينيات القرن الماضي، واكتسبت أنصارا في عدد من البلدان عمدوا إلى اتّباع مبادئها –التطبيقية أساسا- في الترجمة الفورية والتحريرية، والتأويل في هذه النظرية لا يعني أكثر من محاولة تكييف معنوي للنصوص لأغراض إفهامية[1]، لنقلْ إن النقاش كان يدور غالبا حول الجانب الخارجي للترجمة، عكس"غادامير" الذي سبر غور كيفية اشتغال الترجمة من الداخل، لذلك سنستبعد تماما تلك النظرية عن طريقنا ونركز فقط على التناول الهيرمينوطيقي للترجمة من المنظور الغاداميري، وما له علاقة حقيقية بهذا التناول.

ولكي نفهم وضع الترجمة بالنسبة للهيرمينوطيقا بصورة أوضح علينا أن نتطرق إلى قضية اللغة في مناقشة غادامير للمسألة التأويلية، والتي خصص لها القسم الثالث من كتابه الأساسي "الحقيقة والمنهج truth and Method"، والحقيقة أن غادامير لم يتكلم عن الترجمة في عنصر قائم بذاته، بل تكلم عنها خلال حديثه عن بنية الفهم اللغوية، حيث تُطرح إشكالية اختلاف اللغات أمام قضايا الفهم والتأويل.

سنبدأ من الاعتبار الأساسي لغادامير الذي يقرّ بأن طبيعة التجربة التأويلية عامة هي طبيعة لغوية صميمة، وهذا الإقرار لا يعني فقط أن التراث الذي نحن بصدده هو تراث لغوي، ولكن يعني بصفة أشمل أن عملية الفهم ذاتها تتخذ الصبغة اللغوية نفسها؛ وأن يكون التراثُ لغوياً، يعني أن هذا التراث انتقل إلينا عن طريق اللغة، ولا يمكننا أن نفهمه إلا إذا أدركنا بوضوح علاقة هذا التراث اللغوي بالتجربة التأويلية، و"التراث اللغوي هو تراث بالمعنى الخاص للكلمة؛ أي أنه شيء ينتقل من جيل إلى آخر. فهو ليس مجرد شيء مرجأ يجب البحث فيه وتأويله كبقية من بقايا الماضي. فما وصلنا عن طريق التراث اللغوي ليس شيئا مرجأ بل معطى لنا"[2]. علينا أن نتذكر دائما أن الفهم يستند إلى طبيعته

التاريخية، وهذا ما يعني أن التراث اللغوي الذي نتكلم عنه لا يرتبط بتفسير محدد قصده الكاتب، إنه فهمنا نحن في زماننا ومكاننا، والمعنى هو نتاج لاتصالنا الحواري بالنص، لذلك نجد أن غادامير يركز في تناوله للطبيعة اللغوية للتجربة التأويلية على عنصر الكتابة على حساب عنصر الكلام؛ ذلك أن "الكتابة هي المثالية التجريدية للغة"[3]، فهي التي تعطينا هذه الإمكانية في كون التراث الذي تحمله هو تراث موجه إلينا نحن، وفهمنا لهذا التراث يكون ممكنا فقط لأنه مرتبط باللغة التي تتميز براهنيتها ومعاصرتها، فـ "مثالية الكلمة هي التي تعلو بكل شيء لغوي عن التناهي والزوال اللذين يميزان البقايا الماضية الأخرى، فليست هذه الوثيقة بوصفها قطعة من الماضي، هي الحاملة للتراث، بل الحامل للتراث هو استمرارية الذاكرة، وعبرها يصبح التراث جزءا من عالمنا الخاص"[4]، لهذا فأولوية اللغة على أي وسيلة أخرى يمكنها أن تنقل إلينا التراث، هي أولوية واضحة من خلال إدراك الطبيعة الجامدة لهذه الآثار التي لا تدل في الحقيقة على شيء أكثر من إخبارنا بهيئة وجود إنساني سابق بصورة محددة.

أما ما يخص الكلمة فنحن نلتقي بالتراث من خلال انفتاحها، وبالتالي فإن فهم التراث لا يرتبط بأي علاقة مع ما اعتقد "فريدريك شلايرماخرFriedrich Schleiermacher " أنه أساس الفهم، وهو البعد النفسي للعملية؛ أي مراعاة المعنى الأصلي الذي قصده الكاتب الأول. الآن يمكننا أن نرى هذا بوضوح عند ربطه بحقيقة أن هذا التراث لغوي، فـ "الكتابة بأسرها ضرب من الكلام المغترب، وعلاماتها بحاجة إلى أن تحول إلى كلام ومعنى. ولأن المعنى كان قد خضع إلى نوع من الاغتراب الذاتي كونه صار مكتوبا، فإن عملية التحويل هذه هي المهمة التأويلية الحقيقية"[5]، ولهذا فالكلمة المكتوبة هي ملك مشاع، ولا تخضع في ابتكارها للمعنى – خلافا للغة المنطوقة- إلى أي إكراه أو تأثير أو مساعدة مهما كان مصدرها كما بيّن غادامير، وهي لذلك تكتسب قيمتها من هذه الحرية في الانتقال والإبداع، إنها شيء نملكه ولكنه يتجاوزنا باستمرار، وهذا هو الامتياز الأساسي للغة؛ أي أنها تمنح لنا فرصة إدراك تاريخية فهمنا للتراث.

واستنادا إلى هذه النظرة، لم تكن اللغة في ذاتها عند غادامير هي صلب العملية، فالأهم هو ما تحمله من تراث؛ إذ لو كانت هي المقصودة لما اختلفت عن بقايا الماضي الأخرى، ومنه تتبدى العلاقة المعقدة بين اللغة والفهم في كون "النص يقدم الموضوع في اللغة، ولكن فعل ذلك هو في الأساس إنجاز للمؤول. ولكليهما نصيب فيه"[6] وهذا القول يجعل من ادعاء غادامير لوحدة الفهم واللغة، أو بالأحرى للغوية الفهم سندا قويا للعملية التأويلية، وهو ما يساعدنا نحن أيضا على استكناه الطبيعة التأويلية للترجمة كما عبّر عنها غادامير؛ ذلك أن النص المترجم هو في الأصل جزء من التراث اللغوي الذي يحتاج منا عملية مشابهة لتلك التي نستعملها في فهم أي نص، ولكن بصورة أكثر حدّة، إذا أخذنا في اعتبارنا خصوصية كل لغة.

في الإطار نفسه، تتخذ وحدة الفهم والتأويل أهمية بالغة من أجل كشفنا لهذه الطبيعة اللغوية للعملية التأويلية، ومن ثمة في فهم إشكالية الترجمة بشكل أوضح، وغادامير يحذرنا من مغبة فصل الفهم عن التأويل، أو اعتبار أحدهما سابقا للآخر، فالفهم والتأويل هما شيء واحد أساسا، وفي هذه الحالة "لا يكوّن الوضوح اللغوي الذي يحققه الفهم من خلال التأويل معنى ثانيا بمعزل عن ذلك الذي فُهم وأُوّل. فالمفاهيم التأويلية ليست بحد ذاتها مفاهيم موضوعاتية في الفهم. بالأحرى تختفي طبيعتها خلف ما تقوله تأويليا. على نحو مفارق، يكون تأويل ما صحيحا عندما يستطيع التخفي بهذه الطريقة. مع أنه في الوقت نفسه يجب التعبير عنه كشيء يفترض أن يختفي"[7]. إن التأويل هو فعل محايث تماما لعملية الفهم نفسها، ومزامن لها في الوقت نفسه، فنحن لا نفهم ثم بعدها نؤوّل، بل إن فهمنا لا يمكن أن يكون شيئا ممكنا إلا من خلال التأويل الذي هو تأويل لغوي أساسا، لأنه يحيلنا دائما إلى عالم كامل من الكلمات التي نختار منها تعابيرنا، وهذه العملية الاختيارية بالذات هي قوام التأويل بأسره، فـ "النص يكوّن ليتكلم من خلال التأويل. ولكن لا نص ولا كتابَ يتكلم إذا لم يتكلم لغة تواصل الآخر"[8]التي هي لغة المؤوّل.

ولكن هذا الوضع لا يجب أن يوهمنا أن مرتبة التأويل في اللغة تشكّل فعلا لاحقا (تاليا)، إن العملية كلها هي عملية واحدة، لهذا يمكننا أن نلاحظ مع غادامير الخطأ الذي طالما ميّز العملية الهيرمينوطيقية،

والتي كان التأويل فيها وضعا طارئا فقط لا يُرجع إليه إلا إذا تعذّر الفهم الفوري، فـ "ما عاد بإمكاننا، منذ الحقبة الرومانسية، أن نتمسك بالنظرة القائلة إنه في غياب الفهم الفوري تستخرج الأفكار التأويلية، التي تكون الحاجة ماسة إليها، من المستودع اللغوي الذي تكون فيه لتلبية الطلب. إن اللغة هي بالأحرى الوسط الكلي الذي يحدث فيه الفهم. والفهم يحدث في التأويل"[9]. إن اللغة التي يزعم غادامير احتواءها للعملية التأويلية، لا تتمثل فقط في تلك الكلمات التي نستخدمها للتعبير عن شيء معين، ولكنها تمثّل- بصورة أعم- الوعاء الذي يحتوي كل المعاني الممكنة، وبهذا المفهوم وحده نستطيع أن نستوعب دور التوسط اللغوي خلال عمليتي الفهم والتأويل، حيث يبين هذا التوسط الطبيعة التاريخية للتأويل ممثلة في علاقتنا بالفضاء اللغوي الذي نوظّفه خلال هذه العملية التي تمنح معنىً للنص الذي نقرأه، لذلك فغادامير يعتقد أن "التفوق النقدي الذي تدّعيه على اللغة لا يتعلق بمواضعات التعبير اللفظي بل بمواضعات المعنى الذي أصبح مترسبا في اللغة(...)ومن هنا تحبط اللغة دائما أي اعتراض على نطاق سلطتها. فشموليتها تجاري شمولية العقل"[10] فنحن دائما نفهم بفضل ما تتيحه لنا هي من إمكانية للفهم، وهذه الإمكانية هي قدرة معنى ما على أن يتشكّل ويُفهم بوساطتها، لذلك فهي تحيط دائما بكل ما يمكن أن يُفهم، وتعلو على أي صياغة نقدّمها، وهذا ما يبرر قولنا - أعلاه- إن التراث يضمن استمراريته، وانتقاله، وقابليته للمعاصرة بفضل طبيعته اللغوية.

هذا الوضع أيضا هو الذي يعطينا توضيحا لكون التأويل كله لغويّا؛ فـ "حتى عندما يكون ما يؤوّل غير لغوي من حيث طبيعته، أي أنه ليس نصا بل تمثال أو تأليف موسيقي. يجب ألا تربكنا أشكال التأويل غير اللغوية، فهي، في الحقيقة، تفترض اللغة سلفا. إذ ثمة إمكانية لإظهار الشيء بضده، أي بوضع صورتين جنبا إلى جنب، أو قراءة قصيدتين واحدة بعد الأخرى من أجل تأويل إحداهما بالأخرى. وفي هذه الحالات يبدو أن الإظهار يتجنب التأويل اللغوي، ولكن هذا الضرب من الإظهار هو تكييف للتأويل اللغوي"[11]؛ إذ إنه درجة ثانية من التأويل، حيث تضع فقط التأويل اللغوي - الذي هو محايث للفهم كما قلنا- في شكل واضح وجلي، وهذه الحالة التي يبيّنها التأويل في شكله الإظهاري هي بالضبط ما ينطبق على حالة الترجمة من خلال كونها إظهارا للتأويل اللغوي الذي يشكِّل صلب مهمة المترجم خلال ترجمته للنص الأصلي.

علينا أن نسترجع الآن ما قلناه في بداية البحث، وهو أن الترجمة هي درجة قصوى من التأويل، وهذا ناتج عن انتمائها إلى مجموعة الفنون الأدائية؛ أي تلك الفنون التي تعتمد على الإظهار مثل التمثيل المسرحي، والأداء الموسيقي، والرسم، والسينما...، فكل هذه الفنون تضاعف من العملية التأويلية كونها تجعل التأويل شيئا ملموسا خلال محاكاتها للأصل، لنقل إنه عملية "تحقيق realization" للتأويل الذي هو صورة إدراكية. يظهر ذلك خلال تمثيلنا لمسرحية ما مثلا، فهذا "الضرب من إعادة الإنتاج ليس خلقا ثانيا للأول؛ إنه بالأحرى يجعل عمل الفن كما لو أنه أُبدِع للمرة الأولى. إنه يُحيي علامات النص الموسيقي والمسرحي. والقراءة جهارا هي عملية مشابهة من حيث إنها توقظ نصا وتأتي به إلى منطقة الحضور المباشر"[12]، إن النص الأدائي في كل الحالات ليس مختلفا عن النص الأول؛ إذ إنه يتعذّر فصل النص عن تأويله، والتأويل ليس شيئا آخر غير ذلك الشيء الذي نؤوّله، إنه باختصار الطريقة الوحيدة لاستيعاب النص الأصلي.

وكذلك بالنسبة للترجمة التي تقوم بالمهمة الإظهارية ذاتها عندما يقوم المترجم بترجمة نص من لغة إلى أخرى؛ حيث تكون " الترجمة هي ذروة التأويل الذي يكونّه المترجم للكلمات"[13]. إننا نقول عن عملية الترجمة إنها حالة قصوى للعملية التأويلية، انطلاقا من وعينا أن التأويل في حالته العادية يفترض أن النص مكتوب بلغتنا التي نفهمها، ومنه فمجرد اتصالنا بالنص يعني أن عملية الفهم والتأويل تقوم بتشكيل المعنى، أما في حالة المترجم، فإن هذه العملية تتم عند اتصاله بالنص الأصلي، وهي في هذه الحالة عملية تأويلية تتّسم بالمباشرية كما وصفنا ذلك أعلاه، ولكن العملية الثانية التي يختص بها المترجم هي "إظهار" هذا التأويل، وتسويغه في لغة ملموسة.

إن هذا الأمر لا يعني –بكل تأكيد- أن العملية الثانية منفصلة عن الأولى، ولكن يعني أن هذا التسويغ اللغوي هو نفسه المعنى الذي يحمله النص الأصلي في تشاركيته مع المؤوِّل، لذا فلغة الترجمة تحوي هذا

الكل المتجانس الذي لا يلغي لا ذاتية المؤوّل ولا آخرية النص، "وبلغة هايدجر ترجمة تكون عملية "تحويل". إلا أننا لا ينبغي أن نفهم التحويل هنا في اتجاه واحد. إن الترجمة لا تحول النص المترجَم فحسب، فهي عندما تحوله تحول في الوقت ذاته، اللغة المترجِمة"[14]، ومن الواضح هنا أيضا أن اللغة التي يستعملها المؤوِّل هي الدليل الأكبر لتأويلية العملية الترجمية، ذلك أن هذه اللغة لا تعبّر عن ذلك الشيء الجامد الذي يوظِّفه المؤول، بقدر ما تعتبر – كما رأينا- الحامل للتراث كله، وخلال عملية الترجمة "يتسلط ضوء جديد على النص منبعثا من اللغة الأخرى من أجل قارئه، والمطالبة بأن تكون الترجمة أمينة لا يمكن أن تردم الهوة الجوهرية بين اللغتين. وأيا تكن الأمانة التي نحاول تحقيقها، يجب علينا اتخاذ قرارات صعبة. وإذا رغبنا، في ترجمتنا، تأكيد سمة الأصلي التي هي مهمة بالنسبة لنا، فيمكننا فعل ذلك فقط عبر التقليل من أهمية السمات الأخرى وطمسها كليا"[15]. فنظرية الترجمة عند غادامير لا تقوم على عملية نقل لمقاصد النص الأصلي أو لمقاصد كاتبه، بل هي –ككل التجربة التأويلية- عملية تاريخية يتكلم خلالها النص لغة، تعبّر عن التقاء أفقي المؤوِّل والنص ذاته، وينتج عن هذا الالتقاء توسيع لأفق اللغة بخبرات جديدة.

لذلك فـإن "مهمة المترجم في إعادة الإبداع تختلف، في الدرجة فقط وليس في النوع، عن المهمة التأويلية العامة التي يقدمها أي نص"[16]، والمترجم مشارك في إنتاجية المعنى، لهذا فعملية الترجمة هي مجال يمتزج فيه كل من اللغة والفهم والتأويل كي يعطينا نصا جديدا، ولكن علينا أن نتذكّر دائما أن هذا الوضع، يتّسم بالمباشرية، ولا يمكننا أن نعتبره عملية مركّبة، إنه يشكّل وحدة بنيوية نلجأ إليها بوعي منا أو دونه خلال قيامنا بترجمة نص ما، لأننا لا نملك طريقة بديلة تتيح لنا الانفصال التام عن النص من أجل ترجمته بصورة موضوعية كاملة. وآخريّة النّص الأصلي – أي كونه بعيدا عنا مرّتين إن صح التعبير: مرة لكونه نصا، وأخرى لكونه مكتوبا بلغة أجنبية- هي سبب كون العملية التأويلية فيها عملية مضاعفة كما رأينا، وهذا ما يجعل من قوانا التأويلية تشتغل بشكل أكبر مقارنة بما يحصل عند التقائنا بنص ينتمي إلى لغتنا وتراثنا.

ولكن، ألا تشكل الترجمة استحالة إذا علمنا أن المعنى الذي تحمله الكلمات يكون مرتبطا أشد الارتباط بالكلمات التي تعبّر عنها كل لغة؟ كيف يمكننا أن ننقل هذا المعنى ونحن نعلم أن الكلمات التي نترجم إليها لن تستطيع أن تحمل المعاني بالطريقة نفسها التي تحملها بها الكلمات الأصلية؟ يجيبنا غادامير على هذا التساؤل الذي هو في الحقيقة توكيد للتجربة التأويلية أكثر مما هو نفي لها، فبحسبه "يبقى عمل الفهم والتأويل ذا معنى دائما. وهذا يبين الشمولية الفائقة التي يعلو من خلالها العقل على حدود أي لغة معينة. إن التجربة التأويلية هي العامل الذي بوساطته يفلت العقل المفكر من سجن اللغة، وهي نفسها تتشكل لغويا"[17] لهذا فإن تباين اللغات يجد خلال الترجمة حلا استنادا إلى شمولية العقل الذي يعلو عن كل لغة بفضل التجربة التأويلية، ومنه فإن فكرة صدق الترجمة وأمانتها تجاه الأصل لا تمثل هاجسا بالنسبة للمترجم كما هو الحال عند عالم اللغة.

إن المترجم الذي يعي عملية الترجمة ليس مطالبا بأن ينقل لنا معنى النص الأصلي كما قصده الكاتب، ولكنه بالأحرى ينقل لنا ما تمخض عن انفتاح النص للمؤوّل الذي هو في النهاية ناقل لما يقوله النص الأصلي من خلاله، لهذا ليس من مهمة المترجم أن ينقل كل سمات النص الأصلي، وغادامير يؤكد أنه "يمكن أن تسدي الخسارة صنيعا حسنا أو حتى أن تعني مربحا؛ لنفكر على سبيل المثال، كيف يبدو ديوان أزهار الشر لبودلير أنه يكتسب حيوية غريبة وجديدة في ترجمة ستيفان جورج"[18]، والمثال نفسه ينطبق على الكثير من الترجمات الرائعة التي كانت أشهر من الأصل، لأنها كانت أكثر انفتاحا وتوافقا بين المؤول والنص مثل ترجمة رباعيات الخيام إلى الإنجليزية، أو ترجمة كل من بولير ومالارميه لإدجار ألان بو وغيرها. صحيح أن المقولة المشهورة "الجميلات غير الأمينات Belles infidèles Les " تعود إلى القرن السابع عشر كما يخبر بذلك مؤلفا كتاب "الأدب المقارن" (كلود بيشوا وأندريه ميشيل روسو(Claude Pichois & André. M. Rousseau)[19] ، وأن هذا النوع من الترجمة كان معروفا من خلال الكثير من النماذج، ويذكر الكاتبان أنه "ثمة كاتب أمريكي ساخر، وصل به الأمر إلى

حد القول: إن هناك كاتبين يحملان اسم بو Poe، أحدهما أمريكي وهو كاتب متوسط جدا، والآخر فرنسي عبقري هو إدجار بو Edgar Poe المترجم، والذي أعيد تشكيله على يدي بودلير Baudélaire، وملارميه Mallarmé"[20].ومنه فالتناول الغاداميري للترجمة يلقي ضوءا جديدا وباهرا ومختلفا على المقولة المشهورة "الترجمة خيانة"، والأكثر من ذلك أنه يجعلها مقولة مؤسَّسَة وقابلة للاستيعاب حيث لا يصير مصطلح "الخيانة" حاملا لأي قيمة سلبية، بل يصبح وصفا لقيمة بنيوية لا يمكن التخلي عنها.

يمكننا الآن- بعد أن شرحنا نظرة غادامير للترجمة، ومن أجل الوصول إلى فهم أعمق- أن نضع هذه النظرة بإزاء نظرة علماء اللغة لموضوع الترجمة هذا، ورغم أننا هنا لسنا بصدد دراسة التناول اللغوي للترجمة ونظرياته بشكل مفصل، إلا أننا سنتخذ من هذا العرض وسيلة لتبيين السبق الذي أحرزته التأويلية في كشف حقيقة الترجمة، وهذا من خلال منطلق عام مفاده أنه بينما ينطلق غادامير من اعتبار أن اللغة تأخذ أهميتها من خلال ما تحمله من تراث، يؤكد علم اللغة على الوسيلة اللغوية ذاتها، أي باعتبارها شكلا. والحقيقة أن غادامير نفسه ناقش مفهوم اللغة المؤسس للعملية الترجمية مرتبطا بنقض آراء علماء اللغة، حتى وإن أبدى إعجابه بعالم اللغة المبرّز "فلهلم فان همبولت W .Van Humboldt(1767، 1835)" الذي قدّم العديد من الأفكار الرائدة خاصة فيما يخص علاقة اللغة بالفكر.

يبدو أن نظرة غادامير للترجمة كما تجلت في نظريته عن اللغة تقترب من علم اللغة التاريخي بقدر ما تبتعد عن علم اللغة الوصفي، وهذا ما نراه من خلال اهتمامه بآراء "همبولت" على حساب "دوسوسير De Saussure"(1857-1913) رغم الشهرة الواسعة للأخير، ورغم كل الضجيج الذي أحدثه علم اللغة الوصفي لاحقا ممثلا في المناهج البنيوية، التي كانت طاغية في الفترة التي كتب فيها غادامير كتابه، ولكن توجه غادامير هذا الاتجاه كان منطقيا جدا في ظل ثورته على المناهج العلمية وتوجهاتها الدوغمائية في حقلي العلوم الطبيعية والإنسانية. غير أنه لا يجب أن يوهمنا هذا الوضع أن غادامير أخذ من همبولت آراءه جميعها، بل إن إعجابه بهذا العالم لم يتجاوز الأسس المعرفية التي انطلق منها الأخير في بناء علم اللغة الحديث، أما ما يتعلق بالعلم ذاته، فقد رفضه غادامير لأنه لا يتوافق وتوجهه الهيرمينوطيقي بخصوص اللغة.

لقد خضعت نظرة همبولت للترجمة – كما عند غادامير- إلى آرائه حول اللغة، وحتى وإن بدت هذه الآراء أقل تزمتا مما هو عند علماء اللغة اللاحقين، إلا أن ذلك لم يتح له أن ينظر إلى مشكلة الترجمة نظرة أقل علمية وأكثر دينامية، وغادامير، إذ يمتدح همبولت، يشير إلى ربطه اللغة بالفكر؛ فنظرية اللغة عند الأخير "تؤكد على المقدرة اللغوية الإبداعية الكامنة في مخ كل متكلم أو عقله. واللغة يجب أن تتماثل مع القدرة الفعالة التي ينتج بها المتكلمون الأقوال وبها يفهمونها، ولا تتماثل مع النتاج الملاحظ لأفعال الكلام والكتابة، فهي حسب كلماته مقدرة إبداعية وليس مجرد نتاج"[21]، وهذا الوصف للغة هو الذي يتيح للمتكلم حرية أكبر خلال التعبير، "فالمتكلمون يمكنهم أن يستخدموا إمكانيات اللغة المحدودة المتاحة لهم استخداما غير محدود في أي وقت"[22]ويرجع ذلك أساسا – كما هو واضح- إلى الاختلافات التي تميز بيئات المتكلمين، وتجعلهم يستخدمون اللغة بطرق مختلفة.

إن هذا الرأي يقترب من آراء غادامير حول شمولية اللغة واقترابها من العقل كما تحدثنا عنها، لذلك نجده ينوّه بهذا التوجه الذي يضمن للمتكلم الحرية بإزاء اللغة؛ فحسبه أن همبولت يحمل "بهذا الخصوص بصائر مشرقة، ما دام لا يعجزه أن يرى أن هناك علاقة تبادلية بين الفرد واللغة التي تتيح للإنسان حرية فيما يخص اللغة، مهما كانت قوة الفرد محدودة مقارنة بقوة اللغة"[23]، وهذا نتيجة القدرة التوليدية والإبداعية التي تمنحها اللغة (في صورتها الوجودية الموازية للفكر)، والتي يطوّع وفقها الفرد محدودية اللغة (من جانبها الشكلي) كي تعبّر عمّا يريده، وهو ما يفسّر أن اللغة تتطور وتتأقلم مع البيئات الإنسانية المختلفة. هذا هو الفتح الحقيقي الذي أحدثه همبولت؛ اكتشاف حقيقة العلاقة بين الإنسان واللغة التي هي علاقة أوّلية وأصيلة تماما، فقد "رأى كل من "هردر Herder"و"همبولت Humboldt"بأن اللغة تأخذ

بشكل أساسي صفة إنسانية، وأن الإنسان هو مخلوق لغوي أساسا، وقد عملا على إظهار الدلالة الأساسية لهذا المنظور على رؤية الإنسان للعالم"[24]، ولا تخفى هنا دلالة الجمع بين رأيين أحدهما لعالم فلسفة لغة رومانسي (هردر)، والآخر لعالم لغوي متبحر (همبولت)، وهي دلالة توضح مدى استغراق غادامير في فلسفة التاريخ الرومانسية التي انطلق منها أساسا، حتى أنه لم يأخذ من آراء همبولت إلا ما كان متوافقا معها كما هو واضح.

ولكن الحد الذي عنده يحدث الانفصال بين وجهة همبولت اللغوية، ووجهة غادامير الهيرمينوطيقية حول اللغة هو الاعتبار الشكلاني الذي صبغه الأول على اللغة، ويظهر هذا خاصة من خلال مفهومه حول الـ " innere sprachform " وهو يعني عنده "البنية الدلالية والقواعدية للغة معينة، والتي تنتظم العناصر والأنماط والقواعد المفروضة على المادة الخام للكلام. وهو جزئيا أمر مشترك لدى كل الناس ونائم في المؤهلات العقلية للإنسان، ولكن جزئيا أيضا فإن الـ sprachform المستقل لكل لغة يشكل هويتها الشكلية واختلافها عن كل اللغات الأخرى"[25]، ولكون بنية اللغة هي بنية شكلانية أساسا بالنسبة لهمبولت، حيث تكون القدرة الإبداعية التي تكلمنا عنها مرتبطة بتلك القواعد العامة، وخلالها " تنتظم كلمات كل لغة في كل منظم لدرجة أن نطق كلمة واحدة يفترض مسبقا كل اللغة بوصفها بنية دلالية وقواعدية[26]، فقد كان محتوى الكلمات أو معناها معرضا للتغير والتطور باستمرار في إطار هذه البنية، بحيث إن الكلمة الواحدة يمكن أن تعني أكثر من معنى في بيئات مختلفة، لهذا لاحظ غادامير أن اللغة - استنادا إلى هذا التعريف الشكلاني- تفلت باستمرار من الموضوع تبعا لطبيعة البيئة المتغيرة والمتطورة دوما، وهذا ما جعل همبولت يعتبر أن "الملكة اللغوية هي في منزلة أعلى من المضمون الذي يمكن أن تنطبق عليه. ومن هنا، ولكونها شكلانية ملكةٍ ما، بوسعها أن تنفصل دائما عن المضمون المحدد لما يقال"[27]، وترتبط بمضامين جديدة تتسم بالتاريخية والنسبية.

لقد جعل هذا الوضع من مفهوم الترجمة مفهوما إشكاليا حقا؛ إذ كيف يمكن أن نترجم من لغة إلى أخرى ونحن نعلم أن المعاني مرتبطة أشد الارتباط بالبيئات والأفكار والأحوال الاجتماعية لكل مجموعة لغوية. وربما هذا هو السبب هو الذي جعل عالم اللغة الفرنسي "جورج مونان Georges Mounin " يضمّ آراء همبولت إلى آراء القائلين بـ "نظرية الظواهر" التي تؤكد "أن كل كلمة – بالنسبة لأي إنسان- ليست سوى مجموعة خبرته الشخصية والذاتية عن الذي تدل عليه هذه الكلمة: فالكلمة الواحدة تختلف صورتها الذهنية من شخص لآخر. وفي هذا المجال اللغوي تؤكد هذه النظرية أن أي لغة ليست سوى مجموعة الخبرات لدى المتحدثين بها. وبناء على ذلك لا تحتفظ لغتان بنفس القدرة من الخبرات والصور ونظم الحياة والفكر والأساطير ومفهوم العالم"[28]، وبالتالي فإن الترجمة تصبح مستحيلة هنا لارتباط اللغة بحالات المتكلمين بها، ونحن عندما نترجم إلى لغة ما لا نستطيع أن ننقل إلا جانبا معينا مما تحمله، لأن اللغة – كما سبق ذكره- تدل على القدرة الإبداعية الذهنية وليس على ما هو مثبت كتابة أو قولا. حتى فهم اللغة الأجنبية لا يتحقق إلا من خلال العيش في البيئة الأجنبية، وهذه أيضا شكّلت صعوبة لدى همبولت على اعتبار أن فهم اللغة الأجنبية يستدعي فصلا بين هذه اللغة وما تحمله، وبين ما يمكن أن يؤثر على هذه العملية من آرائنا الخاصة التي نحملها معنا بسبب انتماءاتنا اللغوية المختلفة.

إن هذا الوضع هو الذي ركّز عليه غادامير، وجعل منه مسوّغا قويا لتبيين أن الترجمة من لغة إلى أخرى تستند أساسا إلى عملية تأويلية مضاعفة؛ وقد رأينا أن اللغة تأخذ قيمتها بوصفها تحديدا للموضوع التأويلي، لا بوصفها لغة في ذاتها، فأهميتها تتحدد فيما تحمله من تراث، لذلك فإن ما قام به همبولت من إعطاء الأولوية للشكل اللغوي على حساب الموضوع يتجاوز كونه رأيا خاطئا، إلى اعتباره غير قابل للتحقق إطلاقا؛ والدليل هو حالة تعلم اللغة الأجنبية؛ فـ" ما يعدّ هنا تحديدا ونقصا (والحال يكون كذلك من وجهة نظر اللغوي المعني بطريقته الخاصة بالمعرفة) إنما هو في الواقع ما تكمله الخبرة التأويلية. إن ما يمنح المرء موقفا جديدا من "رؤيته السابقة للعالم" ليس تعلم لغة أجنبية بحد ذاته، إنما هو استخدام هذه اللغة سواء أكان ذلك في محادثة مع متكلميها الأصليين أو في دراسة أدبها. ومهما كانت إمكانية الفرد لتبني إطار عقلي أجنبي إمكانية ضليعة، فإنه مع ذلك لا ينسى رؤيته للعالم ورؤيته اللغوية. فالعالم

الآخر؛ أي عالم اللغة الأجنبية، الذي نواجهه هو في الحقيقة ليس أجنبيا فقط إنما هو على صلة بنا أيضا. وهو لا يمتلك حقيقته الخاصة في ذاته فقط، ولكن من حيث علاقته بنا أيضا"[29]، لذا، واستنادا إلى زاوية النظر الهيرمينوطيقية هذه، تصبح إشكالية الترجمة غير مبررة تماما، فنحن نعامل اللغة الأجنبية، عند ترجمتها، كشيء موجه إلينا، ومن ثمة لا تشكّل مسألة ارتباط اللغة بحياة أمة ما أية صعوبة إجرائية.

تظهر أكبر أزمة واجهها علم اللغة فيما يتعلق بالترجمة في مفهوم "الأمانة"، ولم تقتصر هذه الأزمة على همبولت وحده، والذي أدى به توجهه اللغوي المقارن إلى محاولة تجاوز الذاتية خلال عملية الترجمة، ولم تقتصر أيضا على من مارس تأثيره عليهم من علماء لاحقين من أمثال النقاد التوليديين والتوزيعيين خاصة[30]، وما تبع هذا التوجه التوليدي من توجه مواز في الترجمة قاده الناقد "أوجين نيدا Nida Eugene Albert"، ولكنها كانت أزمة قائمة ما دامت قضية اللغة تناقش باعتبارها شكلا، وقد بدأ علماء اللغة يخصصون أبحاثا مستقلة لقضية الترجمة منذ 1945 كما يخبر بذلك "جورج مونان"[31]، ولكن القضية دائما كانت قضية شكل لغوي لا قضية فلسفة، حيث كان يُبحث باستمرار عن نوع من التوازي بين اللغة الأصل، ولغة الترجمة، أملا في تحقيق الحد الأقصى من الأمانة؛ لهذا نوقشت بحدة قضية مدى القدرة على نقل البناء اللغوي من لغة معينة إلى أخرى، وبقيت معضلة الأمانة في الترجمة تراوح مكانها، وخاصة فيما يتعلق بالترجمة الأدبية.

ينطبق هذا على جورج مونان، فرغم أن بصيرته التي قادته إلى إدراك أن الترجمة لا تتطلب فهم اللغة الأجنبية حسب، بل أيضا فهم كل متعلقات اللغة، ورغم إدراكه أنه "في حالة الانتقال من لغة إلى أخرى، يعتبر كل شيء تعبيرات اصطلاحية. وهذا يوضح أن الانتقال من لغة إلى أخرى في الترجمة ليس انتقالا مباشرا"[32]، ولكنه انتقال من منظومة كاملة تحملها اللغة إلى منظومة أخرى، ذلك أن اعتبار كل اللغة تعبيرات اصطلاحية يعني ضمنا أنها متعلقة بموقف ما، ولا يمكن فهمها على نحوها الإشاري، رغم ذلك إلا أن مونان لم يدرك أن هذا الوضع يجعل من عملية الترجمة عملية تأويلية أساسا، بالنظر إلى أننا غالبا ما نوظّف آراءنا خلالها، فقد كان همّه منصبا حول وضع منهج لغوي يكفل للمترجم أن يكون أمينا في ترجمته، فحسبه أن "التحليل اللغوي هو الذي أكد (حتى مستوى الجودة الذي نتصوره اليوم)، مفهوم الأمانة في الترجمة وهي مفهوم لا يحبه البعض ويسخرون منه؛ فالترجمة اليوم ليست فقط في احترام المعنى البنائي أو اللغوي للنص (مضمونه اللفظي والنحوي) ولكن أيضا في احترام المعنى العام للرسالة (في بيئته وعصره وثقافته والحضارة المختلفة التي صدرت عنها الرسالة إذا لزم الأمر)"[33] ، فالترجمة يجب أن تلتزم بالنص الأصلي، وبالقصد الأصلي، وهذا يعبّر عن نظرة بعدية لعملية الترجمة، رافقها تجاهل لآليات اشتغال الترجمة من الداخل.

لم تتطور نظرة علم اللغة إلى قضية الترجمة عما رأيناه لدى كل من همبولت ومونان رغم تطور المناهج اللسانية، فقد بقي يُؤمل دائما أن تكون الترجمة تعبيرا مناسبا عن الأصل بعيدا عن كل ذاتية أو تحوير للمقصد الذي وضِع من أجله النص، وهذا ما نجده عند الكثير من الباحثين المحدثين في مجال الترجمة الذين يملكون منطلقات لغوية أمثال: "بيتر نيومارك Peter Newmark "، "أنطوان برمان Antoine Berman" وغيرهم؛ فبينما يُظهر الأول مثلا توجهه اللغوي بوضوح؛ حيث يعتبر أن الترجمة هي "نقل معنى نص إلى لغة أخرى بالطريقة التي أرادها المؤلف للنص"[34]، يتمسك الثاني في تعريفه للترجمة (رغم ما تحمل آراؤه حولها من اعتبارات حوارية حيث تستدعي الترجمة " إقامة علاقة تبادلية وتفاعلية بين الذات والآخر"[35] بعيدا عن أي إلغاء ورغم كل البصائر المتعلقة بإبداعية الترجمة) بمذهبه الأخلاقي من خلال مفهومه المستحدث الذي يسميه "الترجمة الحرفية" الذي يركز على ميدان اللغة الأصل أكثر من اللغة الهدف التي كانت تشكل الهاجس الأول بالنسبة لـ "نيدا"؛ فـ "برمان" يرى أن "المترجم مطالب بالقيام بممارسة تحليلية، يكشف من خلالها الأنساق المشوهة التي تهدد بطريقة لاواعية اختياراته اللسانية والأدبية. وتنتمي هذه الأنساق إلى سجلات اللغة والإيديولوجيا والأدب ونفسية المترجم"[36]، وهذا من أجل تحقيق الأمانة التي هي المطلب الأول بالنسبة له، حتى وإن لم تكن حاملة لذلك المفهوم الدوغمائي السلبي الذي سعى إليه فريق آخر، وهو الفريق المناصر للترجمة الآلية.

ولا يخفى أن آراء "برمان" هي تطوير مباشر لآراء كل من "هنري ميشونيك Henri Meschonnic "، وأيضا "والتر بنيامينWalter Benjamin" خاصة في دعوتهما إلى احترام خصوصيات النص المصدر وغرابته خلال ترجمته، فقد أخذ عن الأول مفهوم "شعرية نحو النص" الذي دعاه برمان "جسدية الكتابة" التي تسمح بإبراز أناقة وحيوية وقوة النص المترجم، أي تسمح، كما قال غوته (Goethe) بـ "تجديد شبابه"[37]، كما يبدو التأثر ذاته في مفهوم "ميتافيزيقا الترجمة" عند "برمان"، المأخوذ عن مفهوم "اللغة الخالصة" الذي جاء به "بنيامين" والذي جعل منه الأصل في تعاضد الألسن الطبيعية وتكاملها فيما يمكن أن يعتبر لغة جامعة تمثل خلاصة كل اللغات البشرية[38].

وإذا كانت نظرة علم اللغة -منذ البداية إلى غاية الآن- للترجمة بعيدة عموما على ما قرره غادامير انطلاقا من كونها كانت دائما محكومة بـ "العلمية"، ومحاولة وضع منهج يتيح الوصول إلى نتائج يقينية، فإن الأمر يختلف بالنسبة للأدب المقارن؛ حيث انبثق من داخله فرع معرفي قائم بذاته معني بـ"الدراسات الترجمية" (وهو فرع حديث نسبيا بدأ يأخذ ملامحه انطلاقا من ثمانينات القرن الماضي). ويبدو من خلال أبحاث هذا الفريق أنهم اتخذوا مسارا آخر مختلفا تماما عن ذلك الذي سلكه علم اللغة، ذلك أنه امتلك علاقة وطيدة بدراسات ما بعد الكولونيالية، والدراسات الثقافية؛ فـ "عندما يتعلق الأمر بالنظريات الحديثة في مجال الأنثروبولوجيا، أو تلك التي تبحث في مسألة الصراع الثقافي بصفة عامة، واهتماماتها بالموضوع الشامل للترجمة بين الثقافات، فإن ذلك له علاقة وطيدة بقضايا ذات طبيعة سيميائية (أو بعبارة أصح، بقضايا ذات طبيعة تأويلية - هيرمينوطيقية) تتجاوز التركيز على الموضوعات اللسانية البحتة، التي ترتبط بمدى أمانة الترجمة للنص الأصلي"[39]. ورغم أن هذه الدراسات لم تول اهتماما بالغا بمناقشة آليات الاشتغال الداخلي لفعل الترجمة كما عالجها غادامير، إلا أنها تعد تابعة بشكل ما إلى هذا الاتجاه الهيرمينوطيقي وإنْ على سبيل التطبيق. ويبدو أن هذا التطور في مسار مناقشة القضية بالنسبة لهؤلاء الدارسين، كان تابعا بطريقة معينة إلى تطور الدراسات المقارنية واتصالها بقضايا النقد الثقافيّ، حتى وإن أنكر بعض الأعلام من أمثال "سوزان باسنيت Susan Bassnett " و"أندري لوفيفر André Lefevere"أن تبقى "الدراسات الترجمية" منضوية تحت لواء الأدب المقارن مؤكدين على مجالها المستقل.
ولكننا –حين نتكلم عن علاقة ما بين نظرية الترجمة الهيرمينوطيقية ونظرية الترجمة الكولونيالية وما بعد الكولونيالية- لا نقيم علاقة تشابهية واضحة المعالم، بقدر ما نقرّ أن المبدأ العام الذي تتخذه نظرية الترجمة الكولونيالية هو مبدأ تأويلي، على الرغم من أن هذه التأويلية تأخذ طابعا قسريا عنيفا ومعنى استلابيا تبعا لكونها وسيلة استعمارية، ومنه تكون طوباوية المفهوم الغاداميري للترجمة التأويلية بعيدة كل البعد، وتحل محلها تأويلية من نوع آخر، وهي تأويلية خاضعة لموازين القوة، ومسيّرة على هذا الأساس، حتى وإن بدا أن هذا الاشتغال يتخذ شكلا مكبوتا مثلما شرح "دوغلاس روبنسنDouglas Robinson"[40]، لهذا فنظرية الترجمة كما طوّرها نقاد الأدب المقارن هي أبعد ما تكون عن مناقشة علماء اللغة، ويضرب مفهوم "الأمانة" الذي طالما عمل علماء اللغة على إدراكه عرض الحائط.
ويمكننا أن نلاحظ هنا أنه إذا كانت الترجمة الهيرمينوطيقية كما وضعها غادامير تختلف عن الترجمة اللغوية في المبدأ، فإنها تختلف أيضا عن نظريات الترجمة الكولونيالية من حيث المصير (وهو هدف لم يسعَ غادامير إليه كونه كان منشغلا فقط بتبيين كيفية الاشتغال الداخلي، لا ما يمكن أن ينجرَّ عن ذلك من نتائج سياسية أو اجتماعية أو غيرها)؛ حيث لا ينطلق التأويل من اشتغال داخلي فقط، ولكن أيضا من هدف- مُعلن أو مضمر- تسعى الترجمة إلى تحقيقه متخذة الفعل التأويلي أو "الاستعاري" كما يشرحه تشيفيتز، لذلك تُعرّف الترجمةَ"على أنّها نقلٌ للمعنى من لغة إلى أخرى دون تغيير جوهرّي. والفارق هو أنهم يفهمون اللغة بطريقة أوسع بكثير من أولئك اللغويين الذين تقتصر بالنسبة لهم على كونها نظام دلالة مجرّد، أو جمعاً من البنى المترابطة فيها بينها. وكما يرى تشيفيتز، فإنَّ الـ translation ترى اللغة على أنَّها فصاحة، تكنولوجيا رئيسة للسيطرة والتحكّم، وقناة فعّالة لتشكيل المجتمعات وتعليمها؛ فهي ثقافة

وإيديولوجيا"[41]، فالترجمة ترادف مفهوم "الامتلاك" للأصل غالبا، وامتلاك الآخر المستَعمَر تعني ترجمته؛ أي تحويله من حالته الهمجية إلى حالة المستَعمِر المتحضرة، وعلينا هنا أن نفرّق بين هذا المفهوم الامتلاكي، وبين الامتلاك الناجم عن كون النص الأصلي موجّها إلينا كما يلح غادامير؛ حيث يوصف الأول بأنه استعلائي، عكس الامتلاك الثاني الأنطولوجي.

ولا تختلف هذه السمة التملكية للترجمة عند سوزان باسنيت – وهي واحدة من أكبر المنظرين لدراسات الترجمة- ولكن منزوع منها ذلك الطابع الكولونيالي، أو على الأقل هو امتلاك أكثر سلمية، لأنه لا يتوجّه من مستعمِر إلى مستعمَر؛ فهي - إذْ تنكر أن يكون النص الأصلي أرفع من الترجمة- تؤكّد أن الترجمة هي امتلاك للآخر، ومن خلال ذلك إضافة النص الأصلي إلى مكتسباتنا حتى يساعدنا في التقدم، لهذا كانت الترجمة دائما مصاحبة لحركات النهضة، بل يمكنها حتى أن تلعب دور الغزو المضاد الذي يشنه المُستَعمَر على المستعمِر من خلال اكتساب معارفه، وهذه هي الحالة التي تشرحها الباحثة من خلال مثال النهضة التشيكية، حيث تورد حالة الكاتب التشيكي "جان إفانجيليستا بوركين Purkeyne Jan Evangelista"الذي يعتبر أن الترجمة هي رد فعل على الغزاة حيث يقول: "لماذا كان الألمان والإيطاليون والمجريون (لكي يوقعوا الضرر بالسلافيين) قد حاولوا سلب الشعور القومي من أناسنا العاديين وطبقاتنا العليا، فلنستخدم نحن وسيلة أكثر نبلاً في الرد، وذلك عن طريق امتلاك كل ما هو متميز كانوا قد أبدعوه في عالم الفكر"[42].

وتقدم لنا سوزان باسنيت ثلاث مراحل لتطور دراسات الترجمة منذ أواسط السبعينات، فبينما تمثل المرحلتان الأوليان بداية تكوّن هذا الاتجاه، تشكل المرحلة الثالثة درجة متطورة من النضج في الرؤية، "وهذه المرحلة الثالثة، التي يمكن أن نطلق عليها اسم ما بعد البنيوية، تفهم الترجمة على أنها واحدة من عمليات عدّة تقوم بالتعامل مع النص، وحيث تحل فكرة التعددية مكان عقائد الإخلاص لنص اللغة المصدر، وحيث أن فكرة النص الأصلي فيها تجابه بالتحدي من عدة وجهات نظر"[43]، وهذا ما يشكّل تطورا واضحا في مسار المناقشة ويقترب بالترجمة أكثر إلى روح ما بعد الحداثة المستوعبة لمناهج ما بعد البنيوية، حيث كل شيء نسبي.

ليس هذا فقط، فحتى بالنسبة للمرجعيات الفلسفية لهذه الدراسات الترجمية هي مرجعيات هيرمينوطيقية بمعنى ما، أو على الأقل هي مرجعيات فينومينولوجية بالمفهوم الهيدجري ممثلة في فلاسفة أمثال "جاك دريدا Jacques Derrida" و"والتر بنيامين Benjamin Walter"، وكلاهما يعتبر أن الترجمة هي "نشاط لـه خصوصية معيّنة، حيث إنها تُمكن النص من الاستمرار في الحياة داخل سياق نص آخر، ويُصبح النص المترجم نصاً أصلياً بسبب استمرار وجوده في سياق جديد"[44]، ومن هذا الرأي يبدو مدى التقارب الحاصل بين هذه النظرة للترجمة، وبين نظرة غادامير لها، حيث لا تعتبر الترجمة نصا ثانيا، بل هي نفسها النص الأصل في بيئة أخرى، أو هي –بتعبير غادامير- تأويل مضاعف للأصل، وحتى وإن اعتبرنا أن الأخير ناقش هذه القضية بشكل أعمق وأكثر تجريدا مقارنة بمناقشة سوزان باسنيت وأندريه لوفيفر وغيرهما من أعلام دراسات الترجمة، فإن الأمر راجع إلى اختلاف مجال المناقشة بين الفلسفة والنقد الأدبي والثقافي، ومهما يكن من أمر، فإن ربط الدراسات الترجمية المقارنية في مراحلها الأحدث، بالمبادئ الهيرمينوطيقية يبدو أمرا مبررا، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه الباحثون بصورة واضحة، وحتى منظرو الدراسات الترجمية ذاتهم لم يكونوا على وعي كامل بهذا الوضع بسبب انشغالهم الدائم بدراسة الترجمة وحالاتها الإجرائية دون التفكير في اشتغالها نفسه.

نخلص، في نهاية هذا العرض، أن نظرة غادامير للترجمة كانت متفردة حقا؛ فهو يرفض دوغمائية المنهج العلمي الذي اتخذته اللسانيات، كما رفض من قبل الطابع النفسي الذي صُبِغت به الهيرمينوطيقا الرومانسية، ويستبدل بذلك كله نظرة أشمل، تعتبر الترجمة فعلا حواريا تشاركيا بين المترجِم (المؤوِّل)، والنص(الموجّه إلينا أساسا)، حيث ينتج عن هذه العلاقة توسيع لآفاق المترجم والنص كليهما.

هوامش البحث:

1- للمزيد حول آراء هذه النظرية ينظر: ماريان لوديرير: النظرية التأويلية فيالترجمة، تر: محمد أحمد طجو، مجلة الآداب العالمية، فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 141، دمشق، سوريا، شتاء 2010، ص29 وما بعدها.

2- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: حسن ناظم، علي حاكم صالح، دار أويا، ليبيا، طرابلس، 2007، ط1، ص .512

3- المصدر نفسه، ص.515

4- المصدر نفسه، ص.513

5- المصدر نفسه، ص.516

6- المصدر نفسه، ص.510

7- المصدر نفسه، ص.522

8- المصدر نفسه، ص.521

9- المصدر نفسه، ص.511

10- المصدر نفسه، ص.525

11- المصدر نفسه، ص.522

12- المصدر نفسه، ص.523

13- المصدر نفسه، ص.506

14- عبد السلام بنعبد العالي: الترجمة: استضافة الغريب، مجلة نزوى، فصلية تصدر عن مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان، العدد 66، عمان، أفريل 2011، ص.267

15- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص.508

16- المصدر نفسه، ص.510

17- المصدر نفسه، ص.526

18- المصدر نفسه، ص.508

19- كلود بيشوا، أندريه. م. روسو: الأدب المقارن، تر:أحمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، القاهرة، 2001، ط3، ص115. (بتصرف).

20- المرجع نفسه، ص 109.

21- ر. ه. روبنز: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم الفكر الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص.285

22- المرجع نفسه، ص.285

23- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص573.

24-Hans-Georg Gadamer, Philosophical hermeneutics, Translated by David E. Linge, University of California press, U.S.A, 1977, p61.

25- ر. ه. روبنز: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، المرجع السابق، ص.286

26- المرجع نفسه، ص.286

27- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص.573

28-جورج مونان: علم اللغة والترجمة، تر: أحمد زكريا إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة (ضمن المشروع القومي للترجمة العدد 290)، مصر، القاهرة، 2002، ط1، ص.17

29- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص.574

30- للمزيد حول تأثير همبولت على هؤلاء ينظر كتاب: جرهارد هلبش: تطور علم اللغة منذ 1970، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، مصر، القاهرة، 2008، ط1، ص93. ينظر أيضا: كلاوس هيشن: القضايا الأساسية في علم اللغة، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، 2003، ط1، ص141 وما بعده.

31- ينظر: جورج مونان: علم اللغة والترجمة، المرجع السابق، ص53، ص.55
32- المرجع نفسه، ص.40
33-المرجع نفسه، ص.82
34- بيتر نيومارك: الجامع في الترجمة، تر: حسن غزالة، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2006، ط1، ص.3
35- أنطوان برمان: الترجمة والحرف أو مقام البُعد، تر: عز الدين الخطابي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، بيروت، 2010، ط1، ص.14
36- المرجع نفسه، ص.16
37- المرجع نفسه، ص12(بتصرف).
38- طه عبد الرحمان: فقه الفلسفة: 1 - الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء(المغرب)- بيروت(لبنان)، 2000،ط2، ص119 (بتصرف).
39- أوبيدي كربونيل كورتيس: ترجمة الآخر: نظرية الترجمة، الغرابة، وما بعد الكولونيالية، تر: أنور المرتجي، منشورات زاوية، المغرب، الرباط، 2012، ص.52
40- دوغلاس روبنسن: الترجمة وتأثير الكولونيالية: نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، تر: ثائر ديب، مجلة الآداب الأجنبية، فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 124، سوريا، دمشق، 2005، ص16(بتصرف).
41- المرجع نفسه، ص21
42- سوزان باسنيت: من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة، تر: فؤاد عبد المطلب، مجلة الآداب الأجنبية، فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 124، سوريا، دمشق، 2005، ص.43،42
43- المرجع نفسه، ص.44
44- المرجع نفسه، ص46.